



ما خرج السوريون من أجل حرية، ليعودوا إلى العبودية ثانية. تحرر بعض الألباب في إطلاق تسمية على ما حدث ويحدث في سوريا، وقد يكون من غير المجد إعمال معايير وقياسات فلسفية وفكرية مشبعة بالدقة العلمية على ما حدث ويحدث؛ فالواقع أقوى وأعمق بكثير من كل فلسفة وعلم قياس أو معايير.

كان الهاجس الأساس لسلطة سورية، ومن يدعمها، نزع صفة "الثورة" عن ذلك. وهي تاريخياً أغرت السوري ظاهرياً بالقضايا الكبيرة، وحضرت محاكمته المنطقية لهذه القضايا عبر اغتيال الحياة السياسية في سوريا، ليتحول السوري، إثر ذلك، إلى حالة انفصام تهم، كما يريد النظام، بتحرير فلسطين وتقلق على مياه النيل والتضامن العربي، وتخرس تجاه سرقة نفط البلد وهيمنة هيتان العائلة على الاقتصاد، وتنسى الحرية الشخصية والرقابة والمحاسبة. لقد جعل النظام الإنسان السوري يركض والرعي يركض، من ناحية معدته؛ ففلسطين تركض وهو يركض وراءها من جهة دماغه. لقد طوّعته سلطة الاحتلال المحلي، وحولته إلى مخلوق يزهق ماء وجهه يومياً، للحصول على حقه الطبيعي، ويعتبر خمسة دولارات زيادة على مرتبه مكرمة من "القيادة الحكيمة" التي "يفديها بدمه وروحه"، وإلى كائنٍ يكاد يستخدم "وساطة" كي يحصل على حقه، أو حتى لكي ينام في فراشه.

أقنعته قيادته الحكيمة بأن هناك أولويات في "سياسة الدولة"، ففلسطين هي القضية المركزية، وها هو يكتشف حديثاً أن من يحتل فلسطين هو الأكثر حرضاً على بقاء جلاده؛ ها هو يكتشف أن تلك المليارات التي أنفقتها قيادته الحكيمة في "شراء سلاح يدافع عن شرف الأمة"، وهو، في الوقت نفسه، يعجز عن شراء اللوازم المدرسية لأطفاله. أما الأسلحة فقد تم تبديدها على قتل هذا المواطن السوري، ومن ثم تنازل "قيادته الحكيمة" عن ذلك الاستراتيجي منها، لصالح محتل الأرض. يكتشف هذا السوري الذي وعي وعاش على كره أميركا أن من برمجه على ذلك يقيم علاقة حميمة معها، وأن المساعدة الأميركيّة في

استمرار منظومة الاستبداد أكبر مما تصور. يكتشف هذا الذي فتح قلبه، قبل بيته، "السيد المقاومة" أن استمرار عذابه وقتله ليس إلا على يد ضيوفه. ها هو السوري يكتشف فجأة أنه طائفي وإرهابي وخائن وقاعدبي وهابي، لمجرد أنه طلب قليلاً من الحرية والكرامة .

من هذه الخلفية التاريخية ومجرياتها، وإذا ما انتقلنا إلى اللحظة، التسمية الوحيدة لما حدث ويحدث في سوريا، على الرغم من كل التشويهات والتشوهات لا يمكن أن يكون إلا ثورة.. فريدة من نوعها، فعلى الرغم من التناقض الصارخ الحاصل بين طيف واسع غير منسجم من قوى الثورة، مدنية كانت أم عسكرية، إلا أن حالة الضياع والإحباط والإرباك والتناقض بين هذه القوى ليس إلا أمراً عابراً، وربما طبيعياً، لأن لا عهد لتلك القوى بالفعل الثوري الحقيقي المبرمج والممنهج؛ وهي ثورة بلا فلسفة، وكل من اشتراك فيها كان مكتوماً على نفسه من السلطة، ومن قوى قررت أن تستثمر بدهاء وتتاجر بفجور بالدم السوري .

مجموع تلك القوى الثائرة وما تحمله من أمراض لا حصر لها حالة زائدة؛ فجهد من انبرى بنية طيبة وصدق فعلٍ كي يأخذ بيدها غير متكافئ مع دهاء النظام وقوته المتراكمة عقوداً من حنكة سياسية مجرّبة، وأسلحة فتاكه، رُصدت للحظات كهذه. تدخلات قاتلة من الحرريضين على بقاء النظام خلخلت الموازين، وسحبت القوى الثورية المقاومة في أحابين كثيرة إلى ساحة النظام والانجرار وراء خطابه، والتماثل مع تصرفاته. مرة أخرى، ذلك "الاستنقاع" في حالة الثورة ليس إلا مسألة عابرة، لا تشبه الثورة، وما هي من خواصها، ولا بد أنها حالة طارئة تزول بزوال المخطط المرسوم لسحبها إلى هذه الحالات الإحباطية المظلمة. ولا يغرنّ النظام سيطرته على الجغرافيا بفعل الاحتلالات؛ فالقضية السورية ما كانت أصلاً عسكرية؛ وما اختار بعض السوريين حمل السلاح إلا مرغمين أو واهمين. والنظام لا يسيطر على منطقتة إلا بعد أن يحولها له الروس إلى ركام، بفعل إنزال ما يساوي حجم مبانيها من الصواريخ والقذائف؛ وفي الوقت نفسه، يعيش فقط سريرياً بفعل عصابات قتلة استجلبها من أصقاع الأرض .

شكل آخر لتجلي تصوير الثورة كتفصيل في الخارطة العالمية متضاربة الأنواء، أو زائدة دودية ملتهبة في الصراع الدولي، البارد حيناً والساخن أحياناً (قمة هلسنكي)، ليس إلا اعتداء على جوهر ثورة أهل سوريا وروحها؛ فما هي عراكٌ عبثي بين مكونات الفسيفساء السوري، ولا هي حارة تقاتل مع حارة أخرى، ولا مجموعة إثنية مع مجموعة أخرى، ولا معتقد ديني أو سياسي مع معتقد آخر. والأهم من ذلك، ليست ثورة سوريا ثورة جياع؛ فالسوريون أحرار بجنياتهم؛ "وتجموع الحرّة، ولا تأكل بشديها". مئات بلآلاف السنين مرّت، وما شهد السوريون أو غيرهم ما يحدث في سوريا. هناك يشرّب بمشاعر وأحاسيس ورؤى وطموح وغضب وكراهة وقهراً ودوانع وإحباطات وطغيان وإذلال وفساد وابتزاز وتهميش وضياع وانسداد أفق، فمن حالة السكون والهدوء والاستكانة، وجد أهل سوريا أنفسهم منتقلين إلى حالة تاريخية ثائرة فاعلة وفعالة، تنظر بمصيرها ومستقبلها وتحرّرها... لا من أجل كمشة طحين، بل من أجل كمشة كرامة. سوريا حُولت، وعن عمد، إلى جسد منهك، سعى الجميع، وفي مقدمتهم، النظام، إلى سحق مناعته، وتحويله إلى ساحة صراعاتٍ، أبطالها دمى، شكلها ديني وسياسي، ثورة أهل سوريا براء منه .

ومن هنا أقتبس أقوالاً لناشط ثوري سوري يطلقها بشكل سلبي ودون فلسفة موجهاً كلامه لهؤلاء الذين يقولون إن الثورة قد سقطت: "الثورة السورية لم تسقط. وها هي تنطلق من جديد؛ فسقوط الأقنعة والفصائل والمكاتب الأمنية والامتيازات والرواتب لآلاف الأسماء الوهمية ليس سقوطاً للثورة. توقف الاقتتال بين بعض الفصائل المرتبط باختلاف الداعم ليس سقوطاً للثورة؛ وتوقف الاغتيالات ضد شرفاء الثورة وقادتها الحقيقيين ليس سقوطاً للثورة؛ وسقوط المتورطين بالخطف والفالدية، وتوقف نشاطاتهم ليس سقوطاً للثورة؛ وسقوط تجار الدين وشماراهم وإماراهم ليس سقوطاً للثورة؛ وسقوط أبو قتادة وأبو القعاع وأبو تala ولا؛ واكتشاف جحافل من الضفادع والمخبرين عالنيةً ليس سقوطاً للثورة. كل ذلك كان مكابح

وألغاماً زرعتها ولدتها ظروف مريضة، ونظام متمرس بسحق كل من يقف في وجهه بطرقٍ لا يعرفها العالم. سقط الساقط فقط، سقط من لم يؤمن بثورة أهل سوريا، ومن لم يكن من أهلها يوماً؛ سقط، وبقيت الثورة بعناوينها النقية الصافية وبمداد وضحّيات مليون شهيد ومتلهمي معاق وجريح وألاف المعتقلين.. سقط كل ذل، لكن ثورة الشهداء والمستضعفين هي فكرة وحق؛ والحق لا يسقط، والفكرة قيمة، والقيمة باقية لأنها حقيقة. من قال سقطت الثورة فهو من بين الساقطين مع من سبق وأنه لم يدرك معناها يوماً ..

من هنا أيضاً، ما نشهد من محاولاتٍ لإعادة تأهيل نظامٍ لم يشهد التاريخ له مثيلاً؛ ومن هنا كل تلك التصريحات الإسرائيليّة والأميركيّة والروسيّة التّيئيسية لأهل ثورة سوريا بأنّ النّظام هو الخيار الوحيد للإبقاء على سوريا. أهل سوريا مقتنعون أنّ من لم يكن مؤمناً على حياتهم لن يكون مؤمناً على سوريا؛ إنه حریصٌ على مسألة واحدة، وهي بقاوته حتى لو استلزم ذلك حرق سوريا بأهلها؛ وهذا تثبته الممارسات التي يشهدها العالم، ويدعم تلك الممارسات لغاياته المريضة. من هنا، ما خرج أهل سوريا من أجل حرية وكرامتهم، وضحوا كل تلك التضحيات؛ ليعودوا إلى نير العبودية.

المصادر:

العربي الجديد